اللاشعور - العقل الباطن

كانوا يعتقدون فيما مضى أن الذي يتحكم في تصرفات الإنسان هو عقله وتفكيره دون أن يقيموا وزنا للعقل الباطن أو اللاشعور، أما الآن وعلى ضوء الأبحاث الجديدة يجب أن نعرف أن الذي يتحكم في الإنسان وفي تصرفاته ويكيف شخصيته، هو العقل الواعي أو العقل المُميز بالاشتراك مع العقل الباطن أو اللاشعور، فالعقل الواعي أو العقل المُميز هو ذلك الجزء من العقل الذي ندرك به ونفكر به ونرى به الكثير من المحسوسات والمعنويات، وهو الذي يهدينا الصراط وينير لنا الطريق ويوضح لنا الخير ويبتعد بنا عن الشر. أما العقل الباطن أو اللاشعور فهو أبعد أثرًا في حياتنا النفسية من العقل الواعي فهو الحيز الكبير من العقل الذي حوى كل الأشياء وكل الذكريات منذ مولد الطفولة حتى الآن وحوى المسائل المُحزنة والمؤثرة المُخزية والمؤسفة، وحوى أيضًا المسائل السعيدة والمُبهجة والمفرحة، أعني أنه حوى كل المسائل التي نظن أنها ضاعت في عالم النسيان والتي نظن أنها تلاشت من فكرنا.

وهذه المسائل في الواقع لم تضع أو تتلاشى وإنما ذهبت إلى عالم العقل الباطن لتعيش فيه، فمثلًا إذا حدث أن أتيت أمرًا مُنكرًا وأنا طفل في الخامسة من عمري، ثم حدث أن دارت عجلة الزمن وذهبت تلك الواقعة إلى عالم النسيان، فمرور الأيام في الواقع لم يُنسني تلك الواقعة

بالمعنى الصحيح وإنما ألقى بها في قاع العقل الباطن ولتظل كامنة هُناك تعيش فيه.

وهذه الواقعة التي رسبت في القاع تظل كما هي ثم يحدث بعد ذلك أن تجئ وقائع أُخرى فتتراكم فوقها وهكذا. حتى أبيت لا أذكر شيئًا عن الواقعة الأصلية، فقد تراكمت عليها الحوادث كما تتراكم الأتربة فوق الكثب فتحجبها.

وأني أظن أن الحادثة الأولى ضاعت في عالم النسيان وعالم الأتربة، ولكن الواقع يقول لي أنها رسبت في قاع العقل فإذا حدث ما يهيج تلك الواقعة بعد ذلك فلا تلبث أن تطفح على السطح فأتذكرها أو أتذكر ملابساتها، وقد تكون بعيدة عني فلا أتذكرها ولكنها موجودة ووجودها له تأثير على شخصي وتصرفاتي، فالعقل الباطن إذن هو المكان الكبير أو الحيز الذي ترقد فيه المدركات الواسع والأفكار وتنحدر من الشعور فيختزنها.

إنه قد يحدث أن نركز كل فكرنا واهتمامنا في لحظة ما من لحظات الحياة على موضع فيشغل تفكيرنا ويجعلنا لا نحس بما يجري حولنا من المظاهر العديدة التي تحيط بنا ولا نهتم لها، ونحاول أن نصل إلى غايتنا من التفكير فيما نريد، ولكننا نعجز أن نصل إلى ما نريد، ثم نستفيق إلى أنفسنا لنجد أمام وعينا أشياء لم نكن نفكر فيها أو نحس بوجودها.. هذه الأشياء أفكار وذكريات كانت مُختزنة في اللاشعور، ووجدت في هذا

السرحان الفكري والشرود الذهني فرصة مُناسبة لأن تطفح على السطح إلى منطقة الشعور من العقل.

ولعلك لاحظت مرة أنك قد نسيت اسم صديق لك فحاولت أن تتذكر اسمه بكل الوسائل المُمكنة، ولكن عبثًا تضيع محاولاتك في اللحظة التي تريدها، وفي فترة ما من فترات حياتك تجد أن هذا الاسم قد ظهر مرة واحدة في فكرك وتذكرته بغتة وجرى على لسانك دون جهد أو تعب.. إن ظهور هذا الاسم مرة واحدة دليل على أنه لم يكن قد انمحى تمامًا من وعيك وأنه ذهب عنك إلى الأبد، وهذا دليل قوي على أنك لم تكن قد نسيته، فهو إذن كان مُخزنًا في العقل الباطن وكان تائهًا في اللاشعور.

وهذا العقل الباطن أو اللاشعور هو المكان الذي تختزن فيه تجارب الإنسان والحوادث التي مرت به في جميع أطوارها ومراحل تطورها منذ نشأتها البدائية إلى الوقت الحاضر، أعني منذ نشأة الولادة حتى هذه الساعة التي تقرأ فيها كلامي هذا.

والعقل الباطن هو الحقل الذي اختزنت فيه صورة التوحش الإنساني الأول وهو المكان الذي تعيش فيه الغريزة الأولى قبل أن تمتد المدينة بالتهذيب والتحضر، وهو البيت الأول الذي تعيش مدارك الطفولة بما فيها من جنون وشذوذ وخلو من المسئولية.

ولعلك لاحظت الكتاب أو الشعراء عندما يذهبون إلى خلواتهم يستلهمون الوحي لصياغة أشعارهم وخيالاتهم وتفسير «استلهامهم الوحي»

أنهم يُحاولون أن يذهبوا إلى منطقة اللاشعور ليأتوا بالخيال، فالشاعر أو الكاتب البليغ هو الرجل العميق الذي يُمكن له أن يصوغ فلتات ماضيه في قالب فني بديع ليُقدمه إلى القراء في صورة قصة أو رواية، من هُنا كان الكتاب والشعراء والمصورون والرسامون والنحاتون وأهل الفن جميعًا، كان لهم المقدرة الكبيرة في استيعاب الماضي من اللاشعور البعيد الغور.

ومن هنا أيضًا كان أهل الفن أكثر الناس تعرضًا للانهيار النفسي ذلك لأن أعصابهم مُفتتة وهم أكثر الناس تعرضًا للجنون، لأن الخوف عليهم من أن يضلوا في بحر اللاشعور وهم يعيشون في الخيال الذي يبحثون عليه؛ فيعجزون عن العودة إلى الحياة الطبيعية.

وليس العقل الباطن محجوزًا عن العقل الواعي بطبقة فاصلة بينهما أو بسياج يحدهما عن بعض، فالاتصال قائم بينهما ولكن الميدان بين العقل الواعي والعقل الباطن «مائع» والأفكار في منطقة الميدان المائع «مائعة» وتختلف قوة اللاشعور باختلاف قدمها؛ فالمسائل التي تاهت في اللاشعور والتي تطفح إلى العقل هي المسائل القريبة الحدوث، وأنت سريع تذكر الأمور القريبة الأحداث عن البعيدة عنها.

واللاشعور خاضعًا لسلطان الشعور، أعني أن العقل الباطن خاضع للعقل الواعي، فأنت إذا أخذت مُخدرًا أو تناولت خمرًا تخدر العقل الواعي وانتهز العقل الباطن هذه الفرصة وراح يروض سلطانه فيضطرب تفكيرك وتغفل عن نفسك فتشعر كأنك تتحرر من تقاليد المجتمع وتحس بجبروت

وبقوة فوق طاقتك فإذا ما زاد تأثير الخمر مثلًا أو المجر زاد تحرر العقل الباطن وزاد تحرره من القوانين فينزع إلى المشاجرة والإجرام، كما قد يلجأ إلى القتل أحيانًا فإذا ازداد تأثير الخمر بفعل الإدمان تخدر الشعور وتخدر معه اللاشعور أيضًا وفقد السيطرة على نفسه وعلى بقية أجزاء جسمه انشل الجهاز العصبي والفكري وبت غير مدرك أو شاعر لما يدور حواليك وتعطلت وظائف الحياة فيك فتتقيأ مثلًا أو تتبول، وتعجز عن المشي وترتمي في الأرض.

والدور الذي يلعبه العقل الباطن في حياة الإنسان كبير جدًا وقوي وله السيطرة العُظمى على تصرفاته، وهُناك صراع قوي بين العقل الواعي – ويقف إلى جانبه الضمير – وبين العقل الباطن، فالعقل الباطن يُريد أن يشبع الغرائز البدائية ويشبع النهم الإجرامي الذي يتردى فيه بما في ذلك من شذوذ وعقوق للمجتمع، فهو يريد أن يحقق نزعاته ورغباته الغريزية التي لا تتفق في كثير من الأحايين مع سنة الكون وناموس الآداب العامة ورغبات الحياة والتقاليد والعرف وأوضاع المدنية، ومن ناحية أخرى يقف الضمير بالمرصاد ليمنع شرود الإنسان ويردعه وينبهه إلى الخطر وينتهي الصراع بأن يكبت الإنسان تلك الرغبات الثائرة فكأن الكبت وسيلة من وسائل التخلص من النزعات الإجرامية، فمثلًا إذا تعرض لك إنسان بكلمات نابية أو آذى شعورك أو صفعك على خدك فإنك تثور وتُفكر في الانتقام منه بأن تطعنه بسكين مثلًا، ولكن هذا التفكير منك لو خرج إلى حيز التنفيذ فسيعرضك إلى مؤاخذة البوليس مما لا يتفق وكرامتك، فتتغاضى عن الانتقام وطعنه بالسكين مُكتفيًا بكلمات تردها له.

ولنضرب مثلًا آخر فنفرض بأنك تعرفت إلى فتاة استملحتها وفكرت في مغازلتها، ثم اكتشفت أنها صديقة لزوجتك أو زوجة لصديقك؛ فسرعان ما تطرد هذه الفكرة مجاملة منك لصديقك أو لزوجتك وحسما للفضيحة فتكبت الفكرة لكن قد يحدث أن تجئ ظروف أخرى فوق طاقتك كأن تجتمع بها في خلوة أو في مناسبة وليس معك غير الشيطان فتثور فكرة الرغبة فيها وقد تنجح في الابتعاد عنها وتفلت من براثن الشيطان ولكن بعد أن تكون استنفدت قوة كبيرة من طاقتك، فإذا تكررت الفرص بالاجتماع معها فقد تجد أن الصراع النفسي مع الضمير وصل إلى حد كبير جدًا مما يعجز الضمير عن صده فتسقط في الهوة.

وإذا فرضنا مثلًا أن شابًا بدينا يُمارس العادة السرية ثم قيل له أن هذه العادة تُخالف أوامر السماء وأنها مجلبة للأمراض الصدرية مثلًا كالسل فيحاول أن يمتنع عن هذه العادة وقد ينجح في مُحاولته فإذا حاول بعد ذلك الاقتراب من النساء كمنفذ لغريزته الجنسية وقف ضميره له بالمرصاد لأنه يعرف عقوبة الزنا فيعود إلى العادة السرية مرة أخرى ويُحاولها ثم يتردد، ومن بين التردد والإقدام يقع فريسة للاضطراب العصبي، ذلك أن نفسه تريد إتيان هذه العادة السرية بينما ضميره يحول بينه وبين ما يريده، وفي غمرة الاضطراب العصبي قد يُصاب بشلل هستيري في يده.

وإن الأمراض التي تصيب الإنسان من العادة السرية، التردد الذي يسبق العادة والندم الذي يحل به بعد ذلك؛ فالندم النفسي أشد ضررًا من العادة نفسها.

وإن كثيرًا من الجنود الذين فقدوا ذاكرتهم في ميدان القتال أو أُصيبوا بشلل في أجسامهم إنما أُصيبوا بأمراض نفسية، فالخوف من الموت قد أوجد حالة مرضية هستيرية تبدو في صورة شلل حتى يكون بمثابة عذر قوي يمنعه من الذهاب إلى القتال.

وكثير من أمراض الضعف الجنسي في الرجال مردها الحالات النفسية، فالرجل الذي يتزوج امرأة لا يحبها ولا يميل إليها قد يجد نفسه ضعيفًا أمامها، ففي ذلك عذر كفيل بالبُعد عنها، كذلك نجد أن سببًا من أسباب البرود الجنسي في المرأة هو كراهيتها للرجل، فكأن لسان حالها يقول له «أنا لا أحبك ولذلك لن أعطيك شيئًا من عواطفي».

وكما قلنا أن العقل الباطن مخزن للذكريات العميقة البعيدة الغور وأن الإنسان يحتفظ في ذلك المخزن بمغامراته النفسية نجد أن الطفولة تحتل حيزًا كبيرًا منه.

وفي الطفولة تبرز الأم أبرز عامل فعال في حياة ابنها لأنها هي التي تطعمه وهى التي تشرف عليه وهي التي تمده بإكسير الحياة، عندئذ ترسخ صورة الأم في ذهن الطفل كرمز للحب القوى فيتعلق بها تعلقًا عاطفيًا، وهذا التعلق العاطفي لا يخلو من الخيالات الجنسية، فإذا شب الطفل ظلت صورة الأم حية في ذهن المريض، كرمز لغرامه الأول، فإذا نضج الطفل وبلغ سن الرجولة، راحت صورة الأم الكامنة في العقل الباطن تتماوج في ذهنه البعيد تُحاول الصعود لتطفو في العقل الواعي، ولكن

الضمير وتقاليد المجتمع تمنع تلك الصورة من الصعود وتكبتها إلى القاع، ومن هُنا يظهر شبح الأم في الأحلام كمنفذ لرغبات اللاشعور..

وكما يُقال عن الميل العاطفي للأم يُقال عن الأخت أو العمة أو ابنة العم أو ابنة العمة أو الخالة أو ابنتها أو أي فتاة أخرى جالت أمام ناظريه، فالأحلام هي النافذة التي تطل على العقل الباطن ومنها يمكن أن تدرك الرغبات الكامنة التي تعيش في النفس، كما تظهر تلك الصور أيضا في أحلام اليقظة خلال سرحان الفكر وشرود الذهن وفى فلتات اللسان.

والأحلام مزيج من المرئيات اليومية مُختلطة بما يداعب الذهن من أفكار وخيالات عميقة.

حدث لرجل أن ذهب إلى معرض سباق الخيل، وفي اليوم التالي رأى نفسه في المنام يركب مهرة جاره وراح يسابق بها، ثم رآها ترفصه وتولي عنه هاربة، هذا الحلم يجب ألا نأخذه بمضمونه الظاهر ففيه معان تستتر وراء هذه الرموز وتتكشف بالتحليل. وقد أزاح الستار أن هذا الرجل مغرم بزوجة جاره وأنه كان كثير الغزل فيها وكانت كثيرة النفور منه، وليست الرموز الظاهرة إلا تمنعًا يستر حقيقة ما يجيش بقلب هذا المريض من تمنيات وأوهام وأحزان، وحدث مرة أن رأت فتاة في منامها رجلا يركب طائرة وترتفع معه في السماء ثم رأت الطائرة تتمزق في الهواء وتحترق وتسقط بها، وقد أزاح التحليل أن هذه المرأة تزوجت ولكن حظها العائر لم يكن معها موفقا.

وقد حدث أيضًا أن رأى رجلا نفسه مدعوا إلى حفلة لمقابلة الملك، ولكنه اكتشف في اللحظة الأخيرة أنه يسير حافي القدمين، وقد أزاح التحليل أن هذا الرجل كان قد تقدم لخطبة فتاة ولكن والدها اكتشف أنه غير أهل لها فرفض الخطبة فالأحلام رموز وطلاسم من ألوان الحياة ولكنها تعبر عن طريق غير مَباشر بما يجيش في نفسية الإنسان من أوهام وآلام وأحزان.

ونعود إلى موضوع التعلق فنقول أن هذا التعلق بالأم أو بالأخت أو بأحد أفراد العائلة، له تأثير قوى في حياة الانسان الجنسية وبالتالي في تكييف شخصيته؛ فالعصبيون الذين يصابون بمثل هذا التعلق ينشدون في حياتهم الزوجية نساء فيهم شبه كبير من أمهاتهم كما يختارون زوجاتهم ممن يمنون اليهم بصفة القربى، فالشديد التعلق بأمه قد يتزوج ابنة خاله أو يهيم بها حبا والشديد التعلق بعمته قد يتزوج ابنتها كبدل لما يريد والشاب الذي يتزوج زوجة عمه بعد وفاة عمه إنما يعانى تعلقاً شديداً بأمه وهو في اختياره زوجة عمه إنما يحاول أن يقرب التعلق بأمه فيجعله شبه واقعي لأن عمه بمثابة أبيه، وزوجة عمه بمثابة أمه.

وأمثال هؤلاء "العصبيين" إذا شجر خلاف بين زوجاتهم وأمهاتهم ينحازون دائما إلى جانب الأمهات، لأن الأمهات يملأن كل كيانهم الفكري، وأن فكرة زواج قدماء المصريين من أخواتهم مردها التعلق الشديد بالأخوات في الطفولة، وكما يهيم الإنسان بأمه تهيم الفتاة بأبيها أو بأي رجل فيه شبه من صورة أبيها، وتكون النتيجة السيئة هو الانهيار النفسي،

وإن كثيرا من الزيجات قد تحطمت على صخرة التعلق بالأم فإذا شجر خلاف بين زوج فتاة شديدة التعلق بأبيها وبين أمها انضمت الفتاة الى صف الأم عند الزوج، ولعل هذا يفسر لنا الكراهية البغيضة بين الزوج وحماته، ذلك لأن العقل الباطن يلعب دوره ويتدخل في المسألة ويجد فرصة الخلاف ما يجيز للفتاة من إشباع العاطفة المكبوتة نحو أبيها وأمها، وقد يتعلق الابن بأبيه بدل تعلقه بأمه، كما قد تتعلق الفتاة بأبيها، ولا شك أن خطر هذا التعلق المقلوب أشد قسوة من التعلق العادي.

وأنت إذا حاولت أن تفسر كل قصص الطلاق فيجب أن تعود إلى ماضي الزوجين لتعرف أن السبب الأصلي كامن في التعلق بالوالدين؛ فكأن التعلق بالوالدين نوع من الارتداد للطفولة ورغبة منه في أن يظل طفلا حتى يظل العبء الثقيل ملقى على والديه وأن من خداع النفس ما تلجأ إلية المرأة من الحديث عن آخر تميل إليه فتزعم أنه يغازلها وأنه يتتبع خطاها وهي بذلك تحاول عن طريقة غير مباشرة أن ترضي كبريائها.

ويلعب العقل الباطن أدوار أخرى كبيرة في تكييف شخصية الإنسان فمثلا الأم التي تحس ببرود جنسي نحو زوجها لأنها تكرهه، تود الانفصال منه ولكن قد يكون لها منه أولاد مما يجعل التخلص من زوجها صعباً فوجود الأولاد يكون بمثابة حائل دون الطلاق، ومن ثم يصبح هؤلاء الأولاد موضع سخط الأم لأنها ترى فيهم عقبة كؤود في سبيل تحررها من الرجل الذي تكرهه، ولكنها مضطرة بحكم الأمومة أن تحب أطفالها، فتراها

ترتد إلى المبالغة في إظهار العناية بهم والحب لهم لتغطى بذلك الكراهية المستترة وهى في كل هذه الأحوال تتصرف بطريقة لا شعورية.

كذلك الشأن في الشاب الضعيف الذي يعانى نقصا جسمانيا فيحاول أن يبدو في صورة أقوى من حقيقته، ومرد ذلك مركب النقص الذي يعانيه، وأن من رجال التاريخ العظام كانوا يعانون من عقدة مركب النقص؛ فقد كان يوليوس قيصر مصابا بالصرع، وكان غليوم مُصابًا بالشلل.

فكأن الضعف أو عامل مركب النقص من المسائل التي تثير العظمة في الرجال، ذلك لأن الحالة المرضية التي يعانيها المريض تخلق عنده قوة مضادة ليحاول أن يظهر أمام الملأ في مظهر أكبر من حقيقته ولقد قيل «أن كل ذي عاهة جبار» فجبروت الضعيف مستمد من حقده على العالم وشعوره بالنقص وإحساسه بأن الطبيعة حرمته من عدلها.

إن كل هذه العوامل وهذه الأسباب وغيرها من مسائل مجتمعة من شأنها أن تجعل المريض يحاول أن يصل بالقوة إل ما عجز عن الحصول عليه بالطبيعة، ومن هنا كانت القوة التي تنبت عن الضعف.